الفصل الخامس
فيروس الأيدز

لقـــد أنـــبأ أيضـــا حضرة مرزا غلام أحمد عليه السلام عن نوع آخر من الطـــاعون ســـوف يظهر فيما بعد في أجزاء أخرى من العالم. ففي عام ١٩٠٧، بعـــد أن انـــتهى أثر وباء الطاعون من الهند، تلقى وحيا من الله تعـــالى يخبره فيه بنوع من الطاعون سوف يظهر أيضا في المستقبل، وفيما يلي ترجمته العربية:

"نـــوع من الطاعون سوف ينتشر في أوربا والدول المسيحية الأخرى، وسوف يكون شديدا جدا"[١]

ماذا يعني التعبير 'نوع من الطاعون'، ولماذا يصيب أوربا والدول المسيحية الأخرى بالذات؟ إن مفتاح الإجابة موجود في حديث من أحاديث رسول الإسلام ﷺ حين أبدى ملاحظة منذ ثلاثة عشر قرنا قبل المسيح الموعود. وطبقا لهذا الحديث الذي سجله ابن ماجة في كتاب الفتن، يقول ﷺ:

"لَـــمْ تَظْهَـــرِ الفَاحِشَةُ في قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إلا فَشَا فِيهِمُ الطَّـــاعُونُ وَالأَوْجَـــاعُ التي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ في أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا." [٢]

إن لفظ "الفحشاء" أو الفاحشة يعني استباحة ارتكاب المحرمات بنوع من الجرأة، والجهر، وعدم الإحساس بالخجل، مما يؤدي إلى عرض الأمور المـــتعلقة بالجنس علنًا. ولا يغيب عن البال أن ارتكاب المحرّمات في ذاته لـــيس سببا لنُزول هذا العقاب الشديد من الله تعالى، ولكن حين يفيض

الكـــيل.. وتُتجاوز كل الحدود.. ويحدث هذا بشكل عام.. ويعتبر هذا المســـلك مقـــبولا اجتماعيا، فحينئذ تصيب هذا المجتمع بعض الأمراض المتعلقة بالجنس، علامة على غضب الله سبحانه.

ويـــبدو أن إصـــبع الاتهام في هذا الحديث الشريف تشير إلى العصر الحـــالي، الذي انتشرت فيه الرذيلة وارتكاب الإثم الفاحش بشكل علني أكـــثر من أي عهد آخر. وعدم الإحساس بالخجل بالإعلان عن ارتكاب الفاحشـــة.. وهو ما يشير إليه الحديث الشريف.. قد صار أمرا واضحا هذه الأيام على أجهزة التلفاز، وفي الصحف، وفي المجلات، يوما بعد يوم، بشـــكل لم يسبق حدوثه على هذا المنوال في تاريخ البشرية كلها. وعلى ذلك فإن العدل المطلق يتطلب تطبيق العقوبة على قدْر الجرم. إن الانخراط في الأعمـــال الشهوانية مع الإعلان الواضح والفاضح عنها.. هو الأساس الذي تتقرر عليه العقوبة. وقد اختارت النبوءة التي ذكرها المسيح الموعود عليه السلام ذكر أوربا بالذات وبلاد مسيحية أخرى، ولكن النبوءة السابقة التي ذكرها الرسول ﷺ لم تعين قوما أو بلدا أو دينا معينا، وإنما اقتصرت على ذكر طبيعة الإثم نفسه، واعدة بعقوبة مناسبة له.

وحـــين قراءة كلتا النبوءتين معًا تتضح الصورة تمامًا. فوصف البلاد المســـيحية ينطبق تماما على الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن طبقا لآخر الإحصاءات يتبين أن الدول الأفريقية في جنوب الصحراء تقود العالم كله في إثم ارتكاب الفاحشة بغير خجل، يليهم في ذلك سكان بلاد الجزر في البحر الكاريبي[٣]. وفي هذه الإحصاءات التي ذكرناها تأتي الدول المسيحية الأفريقـــية في مقدمـــة الدول التي تزيد فيها عدد الإصابات بمرض الأيدز زيادة كبيرة تفوق كثيرا عدد الإصابات في بقية الدول الأفريقية.

والأمـــر الذي يحتاج إلى إيضاح هو طبيعة هذا "النوع من الطاعون" كما جاء ذكره في النبوءات. ويبدو أنه من المعقول تماما القول بأن مرض الأيدز هو المقصود بتلك العقوبة. فالكثير من الأطباء البارزين أطلقوا عليه

اســـم "طـــاعون العصر". فهو كالطاعون.. يسبب التهاب بعض الغدد، ويصاحب ذلك الالتهاب حمى ترتفع فيها الحرارة جدًّا. وهو مرض قاتل بغـــير رحمة.. تماما مثلما كان وباء الطاعون. ومع ذلك فله سماته الخاصة التي يفتقدها مرض الطاعون. فالأيدز هو يقينا مرض يبدأ نتيجة للاتصال الجنســـي، بيـــنما لا يبدأ الطاعون بذلك. وهو بهذه الصفة مرسوم بدقة لمعاقبة الفواحش الجنسية.

ولعلـــه من المفيد هنا أن نُذَكر القارئ بأن النبوءات الدينية يجب ألا تؤخذ بحرفيتها. وذكر الدول الأوربية والمسيحية قد جاء فقط للمساعدة عـــلى معرفة وتحديد المناطق التي سوف يتفشى فيها هذا النوع الجديد من الطاعون، ولا يعني هذا أنه سوف يظل مقصورا فقط على أوربا أو الدول المسيحية.

وتشير نبوءة الرسول الأعظم ﷺ بوضوح إلى إمكان حدوث انتشار أوسع، حيث إنها لا تربط هذا المرض بالدول، بل ببعض الآثام الأخلاقية المعيـــنة. وحيثما تنتشر هذه الآثام الأخلاقية فسوف يتبعها المرض. ولكنه ســـيكون بصورة وباء في البلاد التي تسرف في اقتراف الإثم بشكل علني. ولا يهـــم ألبـــتة ما هو اسم هذه البلاد، كما لا يهم ما إذا كان أغلب الســـكان فـــيها من المسيحيين أو من الهندوس أو من المسلمين. فالبلاد والديانـــات ليست هي السبب، وإنما السبب هو الإباحية المطلقة. وعلى ذلـــك.. حيـــثما كانت الأسباب المؤدية لاستنْزال العقاب، فإن النتائج سوف تتبع حتما.

ولعـــل السبب في ذكر البلاد الأوربية والمسيحية بالذات دون غيرها هو أن الإباحية وارتكاب الفواحش بشكل مفضوح يُعتبر عندهم مسلكا اجتماعـــيا على المستوى الوطني، فإن المرء لا يسمع عن تقنين ما يسمى بالزواج بين الأفراد من نفس الجنس إلا في الدول الغربية، ولا يسمع أيضا عن إباحة العلاقات الجنسية بين أفراد الجنس الواحد في أي تنظيم ديني إلا

في المسيحية.

غـــير أنه لا بد من الأخذ في الاعتبار أنه رغم أن الغالبية العظمى من شـــعوب هذه الدول هم من المسيحيين، إلا أنها أبعد ما تكون عن القيم المسيحية. وفي هذا الشأن لا يمكن للدول الإسلامية أيضا أن توصف بحق أنها هي المحافظة على القيم الإسلامية.

ويترتـــب على ذلك أنه إذا كانت الإباحية والسلوك الوقح المنفلت يمارَس أيضا في الدول الهندوسية أو الإسلامية، فليس هناك من سبب يمنع أن تقع فيهم نفس الكارثة المترتبة على ذلك المسلك.

وقد وصل وباء الأيدز بالفعل إلى جميع قارات العالم، ويكاد لا يوجد أحـــد على غير علم بالأهوال التي يسببها هذا المرض، ومع هذا فإنه من السذاجة بمكان الظن بأن جميع أهوال وفظائع هذا المرض قد تم تقديرها. وليس بصحيح أيضا الظن بأن الأيدز قد أكمل دوره المقدر لـــه، وأنه في طـــريقه الآن إلى الاختفاء. وهو غير مصيب حقا من يراوده الأمل بأنه في القريـــب ســـوف يتمكن البحث العلمي من العثور على ترياق ضد هذا المـــرض أو عـــلاج وقـــائي من فيروس الأيدز. ونحن لا نشارك في هذا الـــتفاؤل، بل على العكس.. فنحن نخشى أن تكون الهجمة الكبرى لهذا المـــرض لم تأت بعد. والملاحظة التي تؤيد وجهة النظر هذه تتعلق بأوجه الشبه العامة بين مجيء المسيح الأول.. سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ومجيء المسيح الثاني.. سيدنا أحمد عليه السلام.

ولـــيس هـــذا هو المكان المناسب للدخول في دراسة مفصلة لأوجه المشـــابهة بـــين المســـيح القديم والمسيح الجديد. غير أنه فيما يتعلق بآية الطـــاعون.. يتـــبين أن الطاعون قد انتشر أيضا كآية عقابية لمن عارضوا المســـيح عيسى عليه السلام. فعندما رفض الناس الإيمان به.. بدأ وباء الطاعون الأول في الانتشـــار عام ٦٥ بعد الميلاد، كما تدل على ذلك السجلات التاريخـــية. وسواء كان الأمر مجرد مصادفة أو بحسب التقدير الإلهي، فقد

انتشـــر ذلـــك الطـــاعون بوجه عام في المناطق التي بلغتها دعوة المسيح ورفضها الناس فيها. ثم أعاد الطاعون هجمته بعد ما يقرب من مائة عام بعد ذلك في عام ١٦٧، ولكنه في تلك المرة أصاب جزءا أكبر وأوسع من العالم، كان يمتد على مدى قارتين من أسيا الصغرى إلى روما، وما وراء ذلـــك في بـــلاد الغال (أي فرنسا القديمة) ومصر. وكانت رسالة السيد المســـيح عليه السلام قـــد وصلت بالفعل إلى هذه البلاد، ورفضت الأغلبية من الناس قبولها.

فـــإذا كانت المشابهة بين زمني المسيح الأول والمسيح الثاني أمرا يكرر نفسه، فلن يكون من المستبعد الآن بعد مرور ما يقرب من مائة عام على وقوع الطاعون الأول أن يصل النوع الجديد من الطاعون إلى قمة انتشاره عند نهاية هذا القرن العشرين ويمتد إلى بداية القرن التالي. ويستند تقديرنا هـــذا على أن الطاعون الذي وقع لأول مرة في زمن المسيح الموعود عليه السلام وصل إلى ذروته في الفترة ما بين عام ١٨٩٨ وعام ١٩٠٤، ويعلم الله إلى أي مـــدى يريد سبحانه أن يكرر التشابه في تفصيلاته، غير أن النُّذر قد باتت واضحة، ولا بد أن نكون على حذر.

إنـــنا ندعـــو الله تعالى أن ينقذ الجنس البشري من هذه الكارثة ذات الأبعاد العالمية، ويُعينَ الناس على إصلاح أنفسهم. وليس من المستبعد على الإنســـان أن ينال المغفرة من الله تعالى، وينجو من مغبات ذنوبه، إذا ما أصـــلح من أعماله وتاب توبة صادقة. ولكن.. وبكل أسف.. فليس من المـــتوقع أن يتوب الإنسان ويصلح من أعماله. ولا يهم ما إذا كان المرء متدينا أو غير متدين، أو إذا كان يؤمن بالله تعالى أو ينكر وجوده. ففيما يـــتعلق بالســـلوك الأخلاقي للإنسان عامة.. يبدو أن الفساد الأخلاقي واقـــتراف المعاصي قد صار عاما شاملا. وبكل أسف.. فإن أولئك الذين يدّعون بالتدين ليسوا أقل فسادا في الأخلاق من غير المتدينين. ولم يعد من الممكن التفريق بوضوح بين سلوك أولئك الذين يدّعون الإيمان بالله تعالى

وغـــير المؤمـــنين به. لذا فإنه ليس من قبيل المبالغة القول بأن هذا الزمن بأكملـــه قد انحرف وضاع في خسران مبين.. إلا من قلة نادرة. وهذا ما يعلنه القرآن المجيد في وصف الناس في آخر الزمان، حيث يقول:

﴿وَالْعَصْـــرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (١٠٣ العصر:٢-٤)

والقلة السعيدة التي تتواصى بالصبر وتعمل الصالحات.. هي بالمقارنة قلـــة نادرة، أقل من أن تغير مجرى الأمور، أو أن تمنع مد مياه بحر الفساد الأخلاقي من أن تجور على شاطئ الحياة، تماما كما لا يقوى نصل ورقة خضراء.. ولا يتمكن عصفور مغرد.. من تحويل وحشة الخريف واقفراره، إلى روعة الربيع واخضراره.

*****

المراجـــــع

1. *Tazkirah* (1969). Al-Shirkatul Islamiyyah Ltd., Rabwah. Urdu edition, p.705
2. *Sunan Ibn-e-Mājah.* Kitābul-Fitan, Bābul-'Uqoobāt. Vol.II. Dārul-Fikr Al-'Arabi, p.1333
3. UNAIDS and WHO (December 1996) HIV/AIDS: The Global Epidemic. UN web site